إلى كل طالب علم .. إلى كل جاهل

« حكايتي »

حكاية من تَزَبَّب قبل أن يَتَحَصْرَم

قصة واقعية في من
ادّعى حالةً أو صفةً
قبل أن يتهيأ لها



تقريظ

الشيخ العلامة صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

كتبها/ أحمد بن نجاء الرحيلي

الناشر: دار طيبة الخضراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله / وبعد : فقد تصفحت هذا الكتاب (إلى كل طالب علم . إلى كل جاهل) فوجدته يشتمل على النصيحة في مسألتين . الكلام في المسائل المشكلة عن غير علم . الوقوع في أعراض العلماء والانشغال بالجرح والتزكيات . والحث على طلب العلم قبل الكلام . فهو كتاب جيد في موضوعه

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

٢٢/٣/١٤٣٣هـ

تقريظ فضيلة الشيخ العلامة

د. صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله / وبعد : فقد تصفحت هذا الكتاب (إلى كل طالب علم. إلى كل جاهل) فوجدته يشتمل على النصيحة في مسألتين. الكلام في المسائل المشكلة عن غير علم. الوقوع في أعراض العلماء والانشغال بالجرح والتزكيات. والحث على طلب العلم قبل الكلام. فهو كتابٌ جيدٌ في موضوعه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

في ٢/ ٣/ ١٤٣٣هـ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألاّ إله إ لا الله وحده لا شريك له، شهادةً مبرّأةً من الشك والشرك والريب والنفاق، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وخليلُه، بلغ الرسالة وقام بها خير قيام، فأدى الأمانة وهو الأمين، ونصح للأمة وهو بهم رؤوفٌ رحيم.

أما بعد..

فمرحباً بكم يا سادة يا كرام، وسلامٌ من الله عليكم ورحمة منه وبركة خُلّتي وصحبي، وما منكم إن شاء الله إلا خليلٌ وصاحب.

بين يديكم هذه الحكاية وهذه القصة، حكايةٌ ليست ككل الحكايات، وقصةٌ ليست كسائر القَصص، إنها حكايةٌ وقصةٌ! فيها عِبرةٌ وفيها سلْوة، فيها موعظةٌ وفيها ذكرى، فخُذْها من فمِ صاحبها، واقرأها من رَقْم مُنشئها القلم قلمُه والحبر حِبره، والمنضدة اشتراها بحُرِّ ماله! وما عليك إن لم تكن ممن سلك مسلكي أنْ تهبها لمن تراه وقع وقْعتي، فتنقذ صغيراً وتحمي جاهلاً

على أنها تثبيتٌ لك إن شاء الله وتصويبٌ لرأيك في البعد عن التزبّب.

عزيزي القارئ الكريم، إن هذه القصة تُجلّي لك ناحيةً وجانباً من جوانب ضحايا الاستعجال، وأنت تعلم في أدبيّاتنا أن (من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه) قاعدةٌ تطّرد في شتى المجالات، فالاستعجال أمارة الجهل ومظنّة الزلل كما قال الأول:

قد يُدرك المتأني بعضَ حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل الزلل متحقق في معظم دروب الاستعجال، وإن قُدِّر وأصاب الهدف! وإن قُدِّر وسلِم! فما كانت سلامته وما كان صوابه ينبعان عن علم ومعرفة وثقةٍ، وما هي إلا رميةٌ من رامٍ وقذْفةٌ من قاذف. عفواً، لا أودّ أن أُفسِد عليك قصدك في قراءة القصة بوضع الثمرة سابقاً بها، ولذلك أتركك تسير الهوينا بين سطورها، فلعلي أكون وإياك كما قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه[1] من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ (... فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع)، فأنا المبلّغ وأنت السامع بل لعلك تُبعد النظر لتقرأ ما بين السطور فتقع على شيء لم يخطر لي على بال ولم يأتِ لي على خاطر.

(١) باب الخطبة أيام منى من كتاب الحج، رقم ١٧٤١.

لقد كان ميلاد هذه القصة – أعني كتابتها – في بعض المنتديات في الشبكة العالمية (الانترنت)، فلقيتْ – بحمد الله وفضله وإحسانه – قبولاً كبيراً بين روّاد الشبكة، فتداولتها منتدياتٌ ومواقعُ ومدوّنات كُثُر، وكل هذا من كريم عطاء الله لي ولطفه بعبدٍ من عباده، هو إلى الحسنات أحوج ما يكون.

ولأنني كنت قد كتبتها هناك من الخاطر إلى لوحة المفاتيح مباشرةً ودونما واسطة، فإنه قد يفوت شيءٌ كان لابد من ذكره، وقد يحدث خطأٌ غير مقصود، وقد يسهو الخاطر فيكتب القلم غير ما أريد، فلذلك سحبتُها اليوم بأقدامها ووضعتها على وضم جزّارٍ، فنقّحتها وشذّبتها، ثم حملتُها إلى مراكز الزينة فحبوتها ثياب أعرابيٍّ محكّك، ثم نظرتُ إليها كرّةً أخرى فرأيت جانباً من البناء لم يكتمل، فصعدتُ ونزلتُ وقد كانت أربع حلقاتٍ فزدّتُ عليها مثلها، رأيتُ فيها إكمالاً لمسيرة، وإتماماً لنقص، وسداً لِخَلل.

إنها حكايتي يا سادة! وإنه لموضوعٌ ينبض بالعِبَر.

هذا وكم أرجو أن تكون هذه الحلقات خطوةً في رأب الصدْع ورتْق الفتْق، وبداية النهاية لتشرذم ما أنزل الله به من سلطان، فإن الله جل في عُلاه أمرنا بأن نكون جميعاً لا أشتاتاً، ومجتمعين لا متفرّقين في جماعاتٍ وأحزاب وأهواء، مستمسكين بحبْلٍ واحدٍ لا بحِبالٍ شتّى ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ

﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران:١٠٣]، سالكين صراطاً واحداً وسبيلاً واحداً، لا سُبُلاً ولا طرائق مختلفة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]

ولن يحدث هذا بإذن الله إلاّ حين يسكت الجاهل ويطلب العلم، وإلا حين يتّبع الجميع الكتابَ والسنةَ بفهم السلف الصالح، هذا الفهم الذي حملتْه الكُتب في بطونها أجيالاً متلاحقةً حتى وصل إلينا ولا زال غضّاً طريّاً وإلاّ حين يُحسَن الظن بالعلماء، ففي ظني أن الهوّة ما كان لها أن تتّسع لولا أن تطفّل عليها الجهلة وصغار طلبة العلم والمتشبّعون بما لم يُعطوا، ممن هم على شاكلتي من أشباهي وأضرابي.

فإن وُفِّقتُ في هذه الحلقات فكرةً ومضموناً، وطرحاً وسياقاً، وعرْضاً ونقداً، فمن الله وحده، فهو المتفضِّل المنعم الكريم المحسن سبحانه جل في عُلاه، وإن كانت غير ذلك فمن نفسي الأمّارة بالسوء ومن الشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه.

أحمد بن نجاء الرحيلي
msmr١٢٣٤@hotmail.com

تزبب قبل أن يتحصرم

هذا مثل من الأمثال العربية السائرة، يُضرب لمن ادعى حالةً أو صفةً قبل أن يتهيأ لها، جاء في المعجم الوسيط[1] : " تزبب: مطاوع زبّبه، والعنب صار زبيباً. وفي المثل "تزبّب قبل أن يتحصرم" إذا ادعى حالة أو صفة قبل أن يتهيأ لها...".

فهذا المثل الذي اتخذتُه عنواناً لهذه الحلقات يطابِق مضمونها تماماً فالجاهل حين يعتدي على المسائل الكبار ويتحرّش بها، وحين يسلِّط لسانه على أعراض العلماء فيَفْريها، فإنه قد تزبّب قبل أن يتحصرم.

***

(١) باب الزاي ص٤٠٣.

الحلقة الأولى

لا جرم! إني لأكتب هذا الموضوع والمحاذير تتناوشني من مكانٍ قريبٍ ومن مكانٍ بعيد، مخافة ألاّ يكون هذا الموضوع لله، ولذلك أقول: اللهم إن كنت تعلم أنما هو إلا للرياءِ والشُّهرة، أو لحُبِّ الظهور والسُّمْعة، أو لأحدٍ من خلقك نصيبٌ فيه، اللهم فسلِّط على هذا الموضوع الأَرَضة[1] تأكله من أعلاه إلى أسفله، واقتُلْه في مهده، وإدْه[2] في استهلاله، واجعل حروفَه شَذَرَ مذَر[3]، وألفاظَه شغَرَ بغَر، ولا تنْسأ له في الأثر، واجعل تأثيره لا يُجاوز أرنبة أنفه.

وإن كنتَ تعلم أنه خالصٌ لك، قاصداً به رضاك، طالباً لمّ الشمل وجمع الكلمة على الحق والهدى، فاكتب له القبول حيث حل وحيث ارتحل واجعله يسير في القلوب مسير الشمس في الكون، واجعله عُدّةً لي في يوم

(١) الأَرَضة بالتحريك: دودة بيضاء شبه النملة تظهر في أيام الربيع؛ قال أبو حنيفة: الأرضة ضربان: ضربٌ صغارٌ مثل كبار الذَّرّ وهي آفة الخشب خاصة، وضربٌ مثل كبار النمل ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات، غير أنها لا تعرض للرطب. (لسان العرب لابن منظور ١/١١٨-١١٩).

(٢) من الوأد وهو الدفن حياً، ومنه الموؤودة.

(٣) أي تفرّقتْ وذهبت في كل وجه، وفي معناهما أيضاً الكلمتان التاليتان (شغر بغر).

الشِّدَّة، ثُقلاً في صحيفة الأعمال، وزيادة في الهدى والتقى.

لا جرم! إني لأكتب هذا الموضوع وقلبي مفعمٌ بالأمل، ممتلئٌ بالأمنيات أن يكتب الله له القبول بين شريحةٍ كثيرٍ عديدُها؛ من أهل الخير والاستقامة، وهم صغار طلبة العلم، وهم وقود هذا الموضوع والمحترقون فيه، وهم أكثر اللاهثين خلف سرابه.

لا جرم! إني لأكتب هذا الموضوع وأنا أشد حذراً من هاربٍ بِدَم خشية أن يستغله بعض المرضى في غير ما أُريد له، فيقول انظروا إلى هذا الرجل من تلك الفئة وكيف هي نهايته ونهاية كل من سار على نهجه! فحينها سأقول له سقطْتَ ولا لعاً لك[1].

لا جرم! إني لأكتب هذا الموضوع وفي خاطري تتصارع الأفكار، كيف آتيه؟ وأيَّ طريقٍ أسلكها لأصل به إلى شاطئ الأمان؟ وإلى أيِّ مدىً هذا المبنى يدل على هذا المعنى! وإلى أيِّ مدىً ذاك المعنى يقوم به هذا المبنى خير قيامٍ.

(١) فكونه أخرج نفسه من النصيحة وهو غارقٌ كُلّه في موضوعها! وأنها كُتبتْ من غيره لغيره، فإنه لن يستفيد من قرائتها، والاعتداد هذا والغفلة هذه آفةٌ بحد ذاتها، فلذلك سيسقط ولن يُقال له (لعاً لك) وهي "كلمة يُدعى بها للعاثر معناها الارتفاع (لسان العرب ١٢/٢٤٩)"

عزيزي القاريء الكريم..

سأسير بمشيئة الله في هذا المقال على قدم الإيضاح والتفصيل، بعيداً عن العمومات التي يُخصِّصها المغرض على هواه، بعيداً عن المجملات التي يفصِّلها المتردِّي من فوق جبال الجهل والهوى على ما يريد، فالمقام مقام نصيحةٍ في ثوب قصّة، وحكايةٍ في قالب نصيحة، محاولاً قدر المستطاع قطع كل صارفٍ يصرف إلى غير ما أريد، وردّ كلِّ مُماحِكٍ ضاحك يتقلّب في عِطْفَيه يلوي عنق الموضوع ذات اليمين وذات الشمال، وإيقاف كل مؤوِّلٍ يتأوّله ليأخذه إلى جانبه، والله وحده المعين.

هذا المقال يا سادة يا كرام، لا يشمل صنفين من الناس؛ العلماء وكبار طلبة العلم[1]، وكلٌّ حسيبُ نفسه ورقيبُ عقله، فهل أنت من العلماء؟ أو تُعَدُّ في طلبة العلم الكِبار؟[2]، أعني كبار العلم لا كِبار السن، إن كنتَ أحد هذين الصنفين فإنك تعلم ما تأتي وتذر، وعليك من نفسك رقيب والواجب عليك كبيرٌ في اقتفاء الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، وفي ردع الباطل وبيان الحق الذي قام عليه البرهان بصدقه، وما البرهان إلا آيةٌ

(١) من المحيّر جداً توضيح الواضحات، فإنه قد اعترض عليّ معترضٌ يقول: عرّف لنا العالم وعرّف طالب العلم الكبير، وعرف طالب العلم الصغير!

(٢) قد تستطيع الخداع والضحك على الأمة جمعاء وتصر وتعاند، ولكنك في نفسك تعلم أنك الصغير في العلم، وإن ملأ عارضيك المشيبُ.

محكمة، أو سنة ماضية، أو إجماعٌ منعقد، أو قياسٌ معتبَر، فعليك البلاغ والبيان دون الالتفات إلى كثرةٍ وقِلّة، فإن الحق هو الكثرة، وإن الباطل هو القلة وإن ملأ أصحابه فِجاج الأرض.

وإن كنتَ من الصنف الذي أقصده في هذا الموضوع، وهم طلبة العلم الصغار، والصغار في العلم، فإن هذا المقال لكَ وما قامت له سوقٌ إلا بك يشملك هذا المقال أيها الصغير المتزبِّب قبل أن يتحصرم، بغض النظر عن توجّهك وما تنتهجه! جاميٌّ كما ينعت الناعتون، أو صَحَوِيٌّ كما يصف الواصفون، أو قطبيٌّ أو سروريٌّ كما يقوله الآخَرون، فأياً كنتَ فإنني أعنيك وأقصدك، وما ذكرتُ هذه التسميات إلا للتوضيح فقط، دون التعرض لنقدها في خصوص التسمية موافَقةً أو مخالَفة، فالغرض هنا إطْلاعُك على أصابع القصد وإلى أين تشير، حتى لا ترفع ثوبك عن الدم المهراق من أجساد الجهل وتظن أن جسدك الجاهل يسلم!

حبيبي وقرة عيني، إن في تقادم السنين وتتابعها وتسارعها عبرةً لمن يعتبر، وذكرى لمن أمعن النظر في دهاليزها، وموعظةً لمن ألقى يديه خلف ظهره وأنصت يستمع لحديثها، هي في تقلبها بالمرء حالاً على حالٍ تحبُوه الحكمة، وتوقفه على ما خفي عليه في سِنيْ حياته الأولى، تُطلعه على اعوجاج مساره وخطل قراراته، وتوقظه من سباته وتنبهه من غفَلاته، وكلما وقف واسْتوقف والتفت خلفه ورأى كمّاً هائلاً من السنين والأعوام، أطرق

إطراق المُعتبِر والمتفكر في مآله، ثم تنهّد تنهُّدَ من يساقون إلى الموت وهم ينظرون، ولربما تحدرت دمعتان خفيفتان من مقلتيه تحكيان مرارة الحال وشدة الألم، ولعل الخير كل الخير للمرء في أن يصحح ما اعوجّ من الطريق ويستدرك ما فات من العمر، ويستأنف حياته كما يجب أن تكون.

الموضوع يا سادة يا كرام يحكي قصتي وما مررتُ به، أضعها بين أيديكم في حلقاتٍ لست أدري مداها(١)، فلا أستطيع أن أقول هن ثلاثٌ ورابعها الخاتمة، ولا أربعٌ وخامسها الخاتمة، ولا دون هذا ولا أكثر، غير أنني أسير على الخُطا فمتى وصلتُ فقد انتهيت، فالمقال يحكي تجربتي الشخصية في نقد الرجال والطوائف، يحكي حكاية من تزبّب وهو حِصرِم، ومَن دخل الدار من سطحها لا من بابها، ومن أتى الأمور من أدبارها لا من قُبُلِها! ومن أراد قطف الثمرة ولم يهتمّ بالأرض ولا كيف يزرع.

أحكي قصتي! مع النقد والمناقشات والمهاترات في الواقع الأرضي وفي الفضاء العنكبوتي، قصة امتدت تفاصيلها إلى ما يزيد على أربعة عشر عاماً أخذتْ مني ثَمَرة عمري، وزهرة حياتي، وخُلاصة أنفاسي، أخذت مني شبابي، ذهبَ هدراً بلا فائدةٍ تُذكر.

نعم! لقد ذهب الشباب بكل ما فيه جُعبته من خيراتٍ وما وجدتُ

(١) لأنني حين بدأت كتابتها في المنتديات كنت أكتبها حلقةً حلقة.

حيلة أهتدي إليها لإرجاعه، وحقاً وصدقاً يا سادتي! هل يرجع الشباب إذا ما تصرّمتْ أيامُه ولجّ في الرحيل! محالٌ محال، ولهذا سلّمتُ أمري ورضيتُ بواقعي، والتفتُ بحسرة الثكلى إلى الشباب وهو يكاد يسقط في لُجة المغيب سقوط قرص الشمس، فلوّحتُ إليه بيدي أودّعه وأنا أُردِّد:

أيـا عهـد الشـبـاب وكنـتَ تَنْـدى
عــلى أفْيــاء سرحتــك الســلامُ

لقد وضعتُ قدمي على دروب طلب العلم في بواكير شبابي(١)، فجاءت هذه المعمعةُ وهي النقاش والجدال وفلان وعِلاّنٌ وهؤلاء وأولئك لتحملني على ظهرها، ولله من ظَهرٍ ما أطْولَه وأشأمَه! سارت بي مدة طويلة وأنا في غاية المرح والفرح، ثم توقفتْ دون سابق إنذارٍ وقالت دونك فانزل! فنزلتُ وأنا أمْغَطُ جسدي رافعاً يدَيّ إلى السماء، ماداً صدري إلى الأمام، مُفلِّجاً بين رِجليّ، في صوت أزيز صدرٍ مُتعَبٍ ينبعث من الأعماق، يحكي الإرهاق والنصب! مُتلفّتاً هنا وهناك، وما راعني إلاّ التفاتةٌ مني إلى الوراء! توقفتْ أنفاسي وشخص بصري لما أرى! نظرتُ فإذا السراب يمور بأربعة عشر عاماً، ونظرتُ في حصيلة يديّ فإذا هي جهلٌ مُطبِقٌ بما لا يسع المسلمُ جهلَه.

صدقني يا عزيزي إنني أكتب لك هذه الأسطر والدموع تضطرب في

(١) وكان أنْ وفِّقتُ في الدراسة على عالمين كبيرين من أهل السنة وهما الشيخ محمد أمان الجامي رحمه الله والشيخ عبدالله الغنيمان حفظه الله، هذا في الماضي أما اليوم فأنا العاميُّ الكبير ولا فخر.

عينيّ، كان بالإمكان أن أكون بأحسن من هذا، ولكن قدُر الله نافذ وما قدّر الرحمنُ مفعولُ، كان بالإمكان لو سِرْت الهوينا على خطىً ثابتة أن أكون بمشيئة الله في مرتبةٍ من العلم والتقى، ولكني تعجّلتُ وارتكستُ فعرِيتُ من العلم وخلوتُ من التقى، وهذه حقيقتي اليوم مع بالغ الأسف.

لقد كرهتُ هذه المناقشات فتركتُها إلى غير رجعة! فلا ردها الله ولا أعاد لياليها المظلمة، لقد تركتْني صغيراً في العلم، ضعيفاً في التُّقى، بذيء اللسان، قليل الصبر على طاعة الله، كثير الصبر على مقارفة معصيته، قافياً ما ليس لي به علم، وحسبك بهذه الخمسة ثمراً أمرّ من العلقم.

أقول: فجأةً وبعد هذا العمر المديد في النقاش والجدل على أرض الواقع وفي فضاء المنتديات في الشبكة العنكبوتية، جلستُ مع نفسي في حسابٍ مؤلم، فلم أحصِّل شيئاً من العلم الذي أحببتُه وما أحبّني، وكنت سأتشرّف به ولكنه رفض أن يتشرّف بي، نظرت إلى موقعي من العلم فإذا بي صفرٌ صغيرٌ على الشمال! ليتَ الصِّفْرَ كان كبيراً! إذنْ لكان في حجْمه عزاءٌ وسلوة! لكنني عرفتُ صِغَر حجمِ صِفْري فانتفضتُ كما انتفض العصفور بلّله القطرُ، وشتّان ما بينَ انتفاضتي وانتفاضة العصفور، فالعصفور انتفض من بِلال القطرِ من غير كسب يده، وأما أنا فمن بِلال الجهل بجنايتي على نفسي.

عندها صِحْتُ بملء فمي والكلياه! واحسرتاه! ذهب العمر فلْتة ذهبتْ حياتي! ثم يمّمتُ وجهي إلى غير قصدٍ وأنا أقتلع خُطاي من وحَل الحسرة، مُطأطئ الرأس حزيناً كسيراً، تتقاذفني أمواج الألم وتعتصرني معاصر الخيبة، إن عنّتْ لي مسألة اتصلتُ بمن هو أصغر مني أسأله وأستفتيه ، ولو قُدِّر لي العلم لكان هذا الذي استفتيتهُ في طبقة تلاميذي ليس كِبْراً – علم الله – ولو كنت متكبّراً ما اتصلت وما استفتيتُ، ولكنني أحكي واقعاً مُرّاً وحقيقةً قاتلة، وعِبرةً من العبر.

فلذلك زهدتُ فيها وكان الخير في هذا الزهد إن شاء الله، ومن العجائبِ والعجائب جمّةٌ أن هناك تلازماً مطّرداً رأيته في نفسي! ولعلّك توافقني يا من كان مثلي واختط طريقاً مثل طريقي؛ فإني كلما توغلتُ في هاتيك النقاشات كلما انصرفتُ عن العلم، والعكس بالعكس فكلما تركتها كلما أقبلتُ على العلم، يا لهذا التلازم العجيب، غير أن هذا لا يعني أنني اليوم من طلاب العلم، كلا ولا، بل لا أُعَدُّ إلا في جُملة العوام، والحمد لله على كل حال.

ولذلك أقول : تنفّس الصُعداء معي في هذا الكتاب الذي ضاق به صدري فبثثته إليك .

***

الحلقة الثانية

لقد أردت الصراحة في هذا الموضوع، ولعل إرادتكم توافق إرادتي موافقةَ شَنٍّ لطبقَه، حين وافقه فعانقه أيّ معانقة، والشن هو (الإناء) والطبق هو (الغطاء)، ولا أظن الموضوع يحتمل غير الصراحة، لذلك أقول إن من المهم جداً التفريق بين التراجع عن المسألة وبين التراجع عن الخوض في المسألة، أعني أنني لستُ في حديثي في هذا الموضوع في حلقاته مُتراجعاً عن الحق الذي أراه مع فلان من العلماء في إنكاره ورده على عِلاّنٍ من الدعاة أو من العلماء! أو تبيينه باطل ما عليه الجماعات، أو تصنيفه الكتب في دحْر الشرِّ الوافد، أو قتل الشر المنبعث من الداخل، فهذا من الجهاد في سبيل الله بذُبابات الأقلام، وهو من خصائص العلماء وطلاب العلم الكبار.

لكن التراجع هو في خصوص الانشغال بتلك الردود وتقفُّرها لمن هم صغار في العلم مثلي، فلا يصح بحالٍ لمن يجهل أبجديات العلم أن يُشغِل نفسه بتلك الردود وما قال فلانٌ في فلان، وصرف أوقات العمر في شيءٍ ليس من اختصاصي في هذه المرحلة على أقل تقدير. هذا الذي أقصده من هذا الموضوع كله.

فالانشغال بتلك المواضيع يا سادة يعني استجابةً لخطوةٍ من خطوات

أبي مُرّة، فالشيطان الرجيم وهو المشهور بخطواته الماكرة يتدرج معك ويفتل لك في الحبْل والغارب، يأتيك من هنا ومن هناك لعلك أن تستجيب له ولعله أن يظفر منك ولو بالقليل، فإن استطاع أن يوقعك في الشرك وإلا ففي البدع وإلا ففي الكبائر من الذنوب وإلا ففي الصغائر وإلا ففي المباحات وإن عجز أشغلك بالمفضول عن الفاضل، فإن أطعتَه واشتغلت بالمفضول عن الفاضل أعاد الكرّة في خطواته تلك فسار بك القهقرى رجوعاً إلى المباحات ثم إلى الصغائر ،وهكذا إلى أن يصل بك إلى الشرك بالله.

لقد كانت أربعة عشر عاماً محصورةً في مسائل معدودةٍ محدودة؛ أقوالِ فلانٍ في فلان، وتجاوزات فلانٍ في هذا الباب، وتزكيات فلانٍ لفلان، وجديد فلانٍ وعِلاّن، وردٌّ جديدٌ على فلان، وجوابٌ عن رد فلانٍ على عِلاّن! سامحوني لقد صُمّت آذانُكم من مادة (فَلَنَ)، ولكن لا بد مما لا بد منه، فلا أريد التصريح بالأسماء، وكلكم لا يجهلها.

أربعة عشر عاما تعني أربعين يوماً بعد الخمسة آلاف يومٍ! لو قُدِّر لي صرفها في حفظ آيةٍ وحديثٍ ومسألةٍ علمية في كل يوم مما يعني المسلم لكنتُ اليوم أسعدَ من سعيد، يعني هذا أنني حويتُ القرآن بين جنْبيَّ والصحيحين وأربعين وخمسة آلافِ مسألة علمية شرعية، بخٍ بخٍ! ربح العمرَ من صنع مثل هذا.

ولكن، يا لحسرتي وخيبتي! حويت أقوال فلانٍ وأنفاسه لأردّ عليه! واستوعبتُ رسائل فلانٍ وردودَه لأُدافع عنه، وما أغنتْ عني تلك الأقوال والأنفاس والرسائل والردود، فهل تستطيع تلك بمجموعها أن تُعيد لي ما سرقتْه من عمري! وما اختطفتْه من حياتي! لقد سرقتْ مني أعزّ ما أملِك واختطفتْ مني زادي إلى الدار الآخرة، أترون يا سادة زاداً مثل السنين والأعوام! لكن ..

مـا فـات مـات والمؤمّـل غيـبٌ
ولـك السـاعة التـي أنـت فيهـا

لقد أفقتُ بعد أربعة عشر عاماً على حقيقة مرّةٍ جاء بها الدليل الساطع والبرهان القاطع على بساط الهُدى، وقف الدليل بمحاذاة كتفي الأيمن من أمامي ووقف البرهان بمحاذاة كتفي الأيسر من خلفي، وبدءا يتناوبان في سؤالي وأنا بينهما لا أحار جواباً، مرةً يأخذني هذا إلى جهتِه ويسألني، ومرةً يأخذني ذاك إلى جهته ويفعل فعل صاحبه:

ما فائدة ما أنت فيه؟

هل فرضُ عينٍ ما أنت فيه أم فرض كفايةٍ ؟

هل اتقيت الله في ردّك ؟

ثم..

هل حويتَ ما لا يسع المسلم جهلَه؟

ما هي شروط الوضوء؟

زوجتُك تسألك هل ما هي فيه دمُ حيضٍ أم استحاضة؟

ثم..

هل يجيز الشرعُ سُخريتك بهذا المسلم وإن أخطأ؟

لعلك وصلتَ إلى كبيرة الغيبة في ذِكرك لفلانٍ المخطئ!

أتعرف حدود ما يجوز لك في ذكرك لأخيك؟

ثم..

أتعرف فقه الأولويات؟

أتعرف متى تتكلم ومتى تصمت؟

هل أمضيتَ في رَدْهات العلم عُمُراً؟

هل وهل! من بعدها هل وهل!

أصابني الدُّوار بهذا الكم الهائل من الأسئلة التي في بعضها لم أجد جواباً، وفي بعضها الآخر وجدتُ سياطاً لا جواباً، وفي البعض الثالث وقفتُ على خسارتي، ثم سقطتُ أرضاً، وما أتذكر إلا عصافير الحسرة وهُنّ يُحلِّقْن فوق رأسي بزقزقاتٍ ينعين شباباً مضى!

أفقتُ وفتحت عينيّ وإذا بالبرهان والدليل لا زالا واقفين عن يميني وشمالي، ناولتُهما يديّ فأخذا بضَبْعي، وجئتُ أتوكّأ عليهما حتى وصلتُ إليك، وها قد تسمعني أقرع بابك، فهل تعتبر؟

إننا معاشرَ الصغار في العلم لا نعرف متى نقول وكيف نقول! متى نرد وكيف نرد! ولكننا نوقن حق اليقين ونعرف المعرفة التي ليس بها جهالة أن الرد فرض كفايةٍ إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، فإن كان الورع والخوف من الله قد أخذا منك كل مأخذ، وخفتَ أن تأثم بترك الجميع! فاعلم يا رعاك الله - غير معلِّمٍ - أن الجميع لم يتركوا، وأن العلماء الكبار ردُّوا وبيّنوا، فافرح يا رعاك الله فلقد سقط الإثم عنك ببيانهم وردهم!

فلذلك دع ما أنت فيه - أيها المتزبِّب وهو حِصرِم - من الخوض في تيك المسائل أياً كان توجّهك، جامياً كما ينعت الناعتون، أو صحويّاً كما يصف الواصفون، أو قطبياً أو سرورياً، ولا تشغل وقتكَ بالردود ومتابعتها، ولئن فعلتَ فإنك الخاسرُ الوحيد، فأنت الخاسر ولا خاسر إلا أنت، وما تمشي إلا خلف سرابٍ بِقِيعة، فأنت تعرف وأنا أعرف أن لها حلاوةً وطلاوةً، وأن في الردود والجدال والنقاش متْعةً وأيُّ متعة! ولكني أشبِّه هذه المتعة بالنظر إلى ماء البحر وزَبَده، جميلٌ ورائع، ولكن إذا وضعتَه في فمك علمتَ حقيقته! وحقيقته المرارة، وحقيقة ما نحن فيه فوات العمر بما ليس لك.

إنني أدعوك أخي الحبيب إلى الترك الفوري النهائي لهذه المعمعات التي لا تحسنها كما يحسنها العلماء الذين أخذوا العلم بقوة، وإن أبيتَ وركبتَ فيها الصعب والذلول فإني يا رعاك الله مُوقِفُك على حالٍ وأريد أن تبدي لي مشاعرك.

تخيل نفسك في جدالٍ جماهيريٍّ مباشرٍ في مسألةٍ دقيقة من مسائل العلم الكبار، تضل فيها أفهامٌ وتزل فيها عقول ولا ينجو إلا من نجّاه الله، لنقل مسألة تبديع فلان! وأنت في غمرة ردودك وعنفوان نشاطك! التفتَ إليك الخصم وقال لك، دعنا من هذه المسألة، وأخبرنا عن واجبات العمرة! نظرتَ يميناً وشمالاً فسُقط في يدك ولم تحرْ جواباً .

أنت بهذا وقعتَ في أمرين؛ الأول أن الحق أُتي من قِبَلِك، فقد يكون ذلك الفلان مبتدعاً حقاً وواقعاً، غير أن ضعفك عن الجواب في مسألة من بدهيات طالب العلم جعل الجماهير والنظّارة والمارّة يرون ذلك الفلان من السنة وليس من البدعة في شيء، فجنيتَ على السنة بجهلك، والثاني أنك عرفتَ أنك لا شيء حين جهلتَ تلك المسألة.

أيها الصغير في علمه، الضعيف في عقله :

إن العلم والعقل يضربان على قفاك وأنت لا تشعر، ولقد ضرباني قبلك .

***

الحلقة الثالثة

إن من صميم هذه الحلقات وخلاصتها الدعوة إلى اعتزال تلك المواضيع والدعوة إلى طلب العلم، فلذلك هي تعمّ كل صغيرٍ في العلم أياً كان توجّهه، لهذا فليست هي دعوة إلى تغيير المواقف والقناعات تجاه الأشخاص والجماعات والفئات، ابْق على ما أنت عليه أيها الصغير كما أنت إن أحْببْتَ ولكنني أشجّعك على أمرين؛ الأول أن تحتفظ لنفسك بمواقفك ورأيك، والثاني أن تحافظ على ثمرة عمرك في توسيع رُقعةِ علمك الصغيرة وحين يكون لديك العلم الكافي الشافي فعندها ربما تتغير قناعاتك كلها أو بعضها، أو تَثبُت عليها كلها أو بعضها، بحسْب ما تراه موافقاً للحق حين ذاك، وحينها ستُبدي رأيك على رؤوس الأشهاد عن علمٍ وبصيرة، فتقول بعلم وتصمت بعلم.

دعوتي هذه لا تنافي بحالٍ ما عليه موقفي أنا[1] من القضية الفلانية أو من الجماعة الفلانية أومن فلانٍ من الناس، لذلك – مع الفارق الكبير – نجد من سمْت العلماء أنهم لا يُجيبون عن بعض المسائل ولا يقولون رأيهم فيها

(١) لا عبرة بقولي بكل تأكيد، ولكن هذا لتوضيح مقصدي من الموضوع ليس إلاّ.

لعارضٍ من الأسباب، ونحن هنا لدينا سببٌ عارضٌ وقويٌّ ويحتاج كمّاً من السنين لإزالته وهو الجهل، فلذلك لنتشبّه بالعلماء فلا نخوض في تلك المسائل المَعْنيّة.

إن في تركك – أخي الكريم – لتلك المواضيع وإقبالك على طلب العلم ستَجْني بإذن الله سنابلَ من التوفيق في كل سُنبلة مائة حبة؛ بدءاً بشغل وقتك بقال الله وقال رسول الله ﷺ وقال الأئمة الأعلام، مروراً بالابتعاد عن المهاترات التي في حواشيها تكمن المعاصي، من غيبةٍ وبهتانٍ وسبٍّ وشتم وقسوةٍ في القلب وصدودٍ عن الذِّكْر وقولٍ على الله بلا علم، وانتهاءً بالزيادة في العلم، تلك الزيادة التي أمر الله نبيه وخليله محمداً ﷺ بأن يسألها ربه فقال تعالى وتقدس : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه:١١٤].

أزعم زعم الموقن يا سادة أن في طلب العلم للمتزبِّبين من أمثالي رَدْماً للهوّة وتقريباً كبيراً بين المختلِفين، لأن هذا الذي يعترض الآن إنما نتج اعتراضه من عدم فهم الدليل والعِلة، وأنا اعترضتُ نتيجة فهم خاطئٍ للدليل والعِلة وقصورٍ في العلم، فنتج عن هذين الاعتراضين فُرقةٌ أوسع مما بين السماء والأرض، وسِبابٌ وشتائمُ أشد فتكاً من القنابل الفِسْفُورية ومن الصواريخ العابرة للقارات، سلوني عنها فلقد مر صاروخٌ منها من فوق رأسي في زمنٍ غابر، فأخذ معه كلَّ شعرةٍ سوداء وترك لي ما ثقُل على النفس وابْيضَّ لونُه!

ولكن حين نطلب العلم أنا وهذا المعترض، مع أخذ الاعتبار باتحاد العقيدة، فكِلانا من أهل السنة والجماعة، ومصادر التلقّي واحدة، وربما يكون العلماء هم العلماء، والكتب هي الكتب، فإنه ما من شكٍّ أن كثيراً من الاختلافات ستتلاشى، ولربما يكون هناك اتفاقٌ شامل كامل، فالعلم إن امتثلتَه أيها الفتى وهبك الله به خيراً كثيراً ،ستذكر هذا يوماً من دهرك فتذكّرني حينذاك بدعوة في ظهر الغيب!

أنت اليوم – أيها المتزبِّب وأنت حصرِم – لا يردعك رادعٌ في إطلاق ما شئتَ من الكلمات والأنباز والأوصاف والشتائم والأحكام، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ ومرئيٌّ رأي العين ولا يستطيع إنكاره إلا مغالط، والسبب في متناول اليد ولا يحتاج إلى كدِّ الذهن وإعمال الفِكْر؛ وهو خلوٌّ وِفاضك من العلم الذي هو أقصر الطرق إلى خشية الله ومخافته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨]، أما أنت فخشيتُك من الله ضعيفةٌ فلذلك تُلقي بالكلام الذي يهابه العلماء الكبار ويهرب منه عباد الرحمن الأتقياء الأنقياء.

وحتى في مجال الرجوع إلى الحق، فلو حاك الحق في صدرك فلعلّك لا تأخذ به ولا تستجيب لداعيه فلا تذّكر ولا ترجع ولا تلقي له بالاً، وما ذاك إلاّ لعدم أهليّتك لمثل هذه المعاني العظيمة الكبيرة وهي (الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل)، لأنك لا تعرف الحق من الباطل بنفسك فلذلك سيعزِف أبو مُرّة على أوتارِ الصدود لديك، تارةً بأن شيخك اطّلع

عليه ورأى فساده! وأُخرى بأن خصمك مبطلٌ لا يجري الحق على لسانه! وثالثةٌ جرْياً على طريقة الإمعات، تُحسن بإحسانهم وتُسيء بإساءتهم، وهذا ما ليس عند طلاب العلم الكبار ولا العلماء في الغالب إلا من شذ، فهم يَعرِفون الحق بعلاماته وأماراته ودلائله فيصيرون إليه، وحين يرجعون فإنهم يرجعون على بصيرةٍ وهدى، من دليل قاطعٍ وبرهانٍ ساطع، لا تعتورهما الشكوك والظنون، فهم لا يضعون أقدامهم إلا على أرضٍ صلبة.

بالنسبة لي! فلقد صدرتْ مني كلماتٌ وسبابٌ وشتائم وأشياءُ وأشياء! في الزمن الغابر! حين أتذكّرها الآن وأجعل كأن أحداً غيري قالها، فإني أستعظمها وما أستطيع إلا أن أضع يدي فوق رأسي، أوّه أوّه عين الجهل عين الجهل! كيف اسْطعْتُ التلفظ بها؟! وما هو المُجيز لمثلها؟! ولو أُوقفتُ بين يدي الله كيف سيكون الجواب عنها! وهي ما بين سبٍّ مقذِعٍ واتهامٍ وقذفٍ وهلمّ جراً وهلم ندامة. إن قلتَ تسرُّعٌ فما أبعدتَ عن الهدف، أو قلتَ مجازفاتٌ فما زُغتَ عن الصواب، أو قلتَ قِلة مراعاةٍ للوقوف والسؤال يوم القيامة فما كان قولك شططاً، فاللهم إني أسألك السّتر ومغفرة الذنب.

الشيء الغريب يا سادة أنك حين تكون وسْط المعمعة فإنك لا تشعر بحجمها الطبيعي الذي يساوي كوكب ذيل العقرب، أعني حجم السباب والشتائم! بل تراها مثل حبّة البُندق أو تصغر عنها! ولكن حين تبتعد عن

تلك المواضيع زمناً ثم تعود فإنك تراها بحجمها الطبيعي، وجرِّب أيها المتزبِّب فإنك على المجرَّب.

أختتم هذه الحلقة بسؤالك المقارنةَ بين حياتين، وانظر لنفسك وامحضها النصيحة، واختر لها ما تحب:

قارِن بين أربعة عشر عاماً؛ تقضيها بين قال الله وقال رسول الله ﷺ والتفقُّه في مسائل التوحيد والفقه والأصول والحديث واللغة، وبين أربعة عشر عاماً تقضيها بين:

"لم يقل شيخي هذا الكلام!" ، "وقال شيخك كلاماً أكبر منه!"

"ولقد زكّاهم الشيخ فلان وفلان!" ، "وهذه التزكية قديمة!"

"وقد حكم عليهم الشيخ فلان وعِلاّن!"، "وهذا الحكم قديمٌ وتراجع عنه!".

تُرى! في أيِّ الحياتين أنت رابح؟

تذكّر أنك صغيرٌ في العلم يا فتى.

***

الحلقة الرابعة

أتعرف فقه الأولويات؟!

إنه فقهٌ عجيبٌ وبديعٌ، من لم يرْعه حق رعايته، ولم يعتنِ به عنايةً تليق بمقامه، فاته من الخير ما إنّ حسرته لتطول، وسيشعُر بالغبن الظاهر والباطن، أما من أخذه بعين الاعتبار ورفع به الرأس فقد حصّل من الخير ما يشكر به ربّه آناء الليل وأطراف النهار، ولم يفتْه بابٌ من أبواب الخير إلا ضرب فيه بسهم، وأخذ منه بنصيب.

ولِتَقِف على جمال هذا الفقه وأهميته، سأضرب لك أمثلة تجلِّيه:

١ – الأذان وقراءة القرآن : رَفَع المؤذِّن صوته بالنداء للصلاة حين كنتَ منهمكاً في تلاوة كتاب الله، فهل تستمر في تلاوتك أم تقطعها وتردد مع المؤذِّن؟ كما ترى فكلاهما خيرٌ وبرّ.

فقه الأولويات يقول لك : اقطع قراءتك وردد مع المؤذِّن، فإن الأذان ينتهي وقته بانتهاء المؤذِّن من آخر جملة منه، فثوابه محدودٌ بوقتٍ محدد، بينما قراءة القرآن لا حدّ لها بوقتٍ ولا بمقدار، وبهذا تجمع بين الأجرين ولا يفوتك أحدُهما.

٢- الصلاة على الجنازة وقضاء الفريضة : دخلتَ المسجد وقد سلّم الإمام وكبّر للصلاة على الجنازة، فهل تكبّرِ معه أم تقضي الصلاة الفائتة؟

فقه الأولويات يقول لك: صلِّ على الجنازة لأنها تفوت، ثم بعد ذلك يمكنك قضاء الصلاة الفائتة.

٣- تعارَض واجبٌ مع مندوبٍ بحيث لا يمكن الجمع بينهما، مثل تعارض طاعة الوالدين مع طلب العلم الشرعي الزائد عن الضرورة.

فقه الأولويات يقول لك : قدِّم الواجب وهو طاعة الوالدين ثم الثاني لأنه مندوبٌ إليه.

٤- تعارض الوقوع في محرّمٌ مع الوقوع في محرَّم أخف منه، بحيث لا يمكن تلافيهما جميعاً، مثل تحقق وقوع رجُلٍ في الزنا أو جلد عميرة .

فقه الأولويات يقول لك : ارتكب الأخف وهو الثاني، ولكن مع شرط التحقق لا التوهّم[1].

هذا هو فقه الأولويات، ونحن هنا فيما يخصنا في هذه الحلقات، فإن من المهم جداً لمن أراد أن يظفر بالخير كله ويرعى مصلحة نفسه، أن يهتم بفقه

(١) هذه المسألة تدخل في قاعدة (ارتكاب أخفّ الضررين) من باب أولى.

الأولويات، بل إنه في بعض حالاته يكون مراعاة فقه الأولويات من الواجبات الحتمية، ها أنت اليوم طالب علمٍ مبتدئ! ومعنى ذلك أنك ضعيفٌ في العلم ولو أمضيتَ عمُراً في مصاحبة العلماء، وسماع الأشرطة وقراءة الكتب، فما دمتَ لا تستظهر المسائل فأنت طالب علم صغيرٍ، إذن فأنت لست طالب علمٍ متمكِّن نستطيع أن نقول عنك إنك من كبار طلاّب العلم، لأجل هذا فإن وقتك زاحمه أمران؛ طلب العلم، ومجادلة كاتبٍ في الإنترنت أو في الواقع حول فلانٍ وعِلاّن! إن فقه الأولويات يقول لك: أقبِل على الأول واترك الثاني ولا تدخل في جدالٍ مع هذا وذاك وهؤلاء وأولئك لأن إمضاء الوقت في طلب العلم تعلّماً ومراجعةً ومدارسة والاستزادة منه أولى من المجادلة وتبادل الردود، فإن الانصراف إلى الثاني سيكون حتْماً على حساب الأول، وهذا ضررٌ كبيرٌ كما ترى.

ومثله قضاء الساعات في نقاش قضايا نوقشتْ من غيرك مع غيره كثيراً، في كثيرٍ من المنتديات! والقراءة في العلم، فإن فقه الأولويات يقول لك: قل له يبحث في دهاليز الشبكة! ولا تناقشه، وأقبِل على القراءة في العلم.

ومثله الانشغال بفرض الكفاية وقد قام به من يكفي، مثل بيان بطلان ما عليه فلانٌ من الناس، حيّاً أو ميّتاً! فإن فقه الأولويات يقول لك : هذا من العبث وضياع الوقت فلا تنشغل بما كفيتَه.

أحبتي الكرام.. يقول الله تعالى ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران:٧٩].

قال العلماء : العالم الربّاني هو الذي يعلم طلابه صغار العلم قبل كِبارِه ولهذا درج علماء أهل السنة والجماعة منذ القِدَم على تعليم طلابهم صغار العلم قبل كباره، يفعلون هذا واقعاً ويوصون به غيرهم في شتى الفنون؛ في الفقه، وأصوله، والعقيدة، وعلوم اللغة، والتفسير، والحديث...الخ، وإن سألتَ عالماً في علم الحديث مثلاً، كيف أطلب علم الحديث؟ فإنه سيرشدك إلى البيقونية ونزهة النظر، ولن يرشدك إلى تهذيب الكمال للمِزّي الذي يخص علم الرجال في جرح وتعديل، وهذا لأن من رقى السطح من غير أن يتدرّج في السلالم ما يلبث أن يتردّى على قفاه، فهذا هذا.

وأنت أيها المتزبِّب ولم تزل حِصرِماً مثلي، كيف يحق لك أن تقفز إلى كبار العلم فتتحدث في المسائل الكِبار؛ مِن مثل: هل الجرح المفسّر مقدمٌ على التعديل؟ ومتى لا يُقبل قول الثقة؟ ومِن مِثْل: الحكم على أفعال ولي الأمر هل هي مداهنة أم مداراة؟ هل هي موالاةٌ أم لا؟ وما يجوز له وما لا يجوز! ومن مِثْل: هل هذه بدعة وهل صاحبها مبتدع؟ وهل هذا الفعل كفرٌ لا يُعذَر بجهله صاحبه؟ في حين أنك لو سُئلتَ عن مسألةٍ من مثل شروط الشهادتين، أولِ ركنٍ من أركان الإسلام، لتلعثمتَ وتوقفتَ تضرب أخماساً في أسداس!

أخي الحبيب :

تأمل فقه الأولويات

وانظر إليه بعين الاعتبار

وتعلّم صغار العلم قبل كباره

فحريٌّ بك أن تُوفق للخير وتزكو وتعلو.

***

الحلقة الخامسة

آهٍ ثم آه! أتدري مِمّ أتألّم؟
وواهاً ثم واهاً! أتدري من أي شيءٍ أتوجّع؟

إنه من موضوع هذه الحلقة، بل قل مأساةٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إنه متزبِّبٌ أخرق يتناقض مع نفسه، يركل بطنَه بقدمه، ويطعن في خاصرته بسيفه، ويجْدع مارِنَ أنْفِه بِكفِّه، إنه الانتحار بأبشع صُوَرِه! وذاك يا سادة حين تشاهدونه يطعن في علماء في معيّة الدفاع عن علماء آخرين، كلهم من أهل السنة والجماعة!

لقد وقفتُ على متزبِّبين يطعنون في علماء أهل السنة والجماعة طعناً عجيباً، بل لعلي وقعتُ ولعلّك وقعتَ فيها وقعوا فيه في يومٍ من الدهر! يقدحون ونقدح في علماء وطلبة علم بقوادح لا أوّل لها ولا آخر! تارةً بتجهيلهم، وأُخرى بنسبتهم إلى فرق المبتدعة، وثالثةً بعدِّهم من رؤوس الجماعات الحزبية البغيضة! ورابعةً بتكفيرهم! وخامسة وسادسة وهلمّ تسكّعاً في أعراض علماء أهل السنة والجماعة وطلبة العلم منهم، والأمثلة في ذلك لا تعد ولا تحصى! فذاك العالِم ـ على حدّ زعمهم ـ يدعو إلى القاديانية! وذاك الآخر من المرجئة بل من غُلاتهم! وذاك العالم من الجماعة الفلانية! وأما

ذاك العالِم الرابع فهو من الخوارج! وأما الخامس فهو الشاتم لله المستهزئ به! وهلمّ تجنّياً للأحكام ورمياً للعلماء بالأوابد.

كل ذلك يحدث في ضمن الدفاع عن علماء آخرين كما يزعم، وهو منشرح الصدر، تعلوه ابتسامة الرِّضا، فهو يرفع عالماً ويخسف بآخر، ويزكي الأول ويتّهم الثاني، مع إن أولئك العلماء كلهم من صميم أهل السنة والجماعة ومُعرِقون فيهم، فيأتي المتزبِّب الذي يَعْرى من التقوى ويخلو من العلم، فيحكم عليهم بما رأيتم! فهل سلم العلماء من شرور هؤلاء المتزببين!

إنهم بفعلهم هذا وقعوا في الذي منه هربوا! هربوا من انتقاص علماء ليقعوا في انتقاص آخرين، فما صنعوا إلا أن انتقلوا من الأقصى إلى الأقصى! ولذلك يشملهم قول الإمام ابن عساكر رحمه الله[1]: " واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتعٌ وخيم..."[2].

---

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (١/ ٢٩).

(٢) والعجيب أن هذا المتزبب يستشهد بكلام ابن عساكر هذا على صاحبه الطاعن في العلماء! في معية طعنه في علماء آخرين، أتُراه قد نسي نفسه! إنه اضطرابُ مِثلِه، ولا جرم! فشيءٌ خرج من معدنه لا يُستغرب.

ولهذا تجد في ألْسِنَةِ عامّة أولئك المتزببين سلاطةً على العلماء وتحقيراً لهم بل بعضهم يترفّع ويتورّع من وصف ذاك العالِم بالعلم! وقد شهد له كبار العلماء وعدُّوه في علماء أهل السنة والجماعة، وهذا من أولئك المتزبِّبة غير مستغرب، فإناءٌ مُليء بثلاث آفاتٍ؛ جهلٌ، وضعف إيمانٍ، واعتدادٌ بالنفس حريٌّ به أن ينضح بالسوء.

يا تُرى ما مصير مثل هؤلاء؟ أعني ما مصيرنا نحن الطعّانين الهمّازين للعلماء؟ أترون أننا موفّقون أم مخذولون! أتظنون أنْ سنكونُ من أهل العلم والتقى! أتحسبون أننا سننجوا من معرّة هذا الفعل الشنيع! لا ها الله إذن! إلا أن يرحمنا الله ويتجاوز عنا.

إنك ولا ريب ستجني الحنظل والصاب والعلقم بفعلتك هذه فستكون ما بين مخذولٍ ومقموعٍ ومستوحِش؛ مخذولٌ في خطواتك، مقموعٌ من الناس ومن طلبة العلم، ومستوحشٌ حتى من نفسك، قد ابتلاك الله بشتّى صنوف العذاب؛ فأنت في بيداء التِّيه لا تبرح مكانك، لك في كل يومٍ قولٌ ورأيٌ، ولك في كل رأيٍ وقولٍ رحلة الشتاء والصيف، في أقوالك الشطط، وفي قراراتك العطب، وفي مواقفك الهلاك، تظن بنفسك خيراً وبالعلماء شراً، فهم ـ عندك ـ العملاءُ والخوَنةُ ولاعقو أحذية السلاطين والـمُفتُونَ بما يهوى السلطان! وأنت المُخلِص الأمين زاهد الدنيا وطالبُ الآخرة الصادعُ بالحق الذي لا يخشى في الله لومةَ لائم!

ولكن لتعلم يا هذا علم اليقين وحق اليقين أن كل هذا الذي يصدر منك ويحدث لك، وكل هذه الأضحوكات التي تخرج من رأسك، إنها هي من خُذلان الله لك، وعاقبة لسانك الذي لم تصنْه، وعقلك الذي لم يحجبْك عن الشر، ونتيجة طبيعية لجهلك العريض بقدْرِك.

تُرى! ما ضرّني وأنا الجاهل لو صَمَتُّ فسلمْت، سلمتُ من معرّة الإثم وعواقب المواقف المخزية! إنني لا أملك نفسي عند الغضب لشيخي، فلا أستطيع كبح جماحها عن السطو على أعراض العلماء الآخرين بسببه، متسلِّقاً أسوار مُدُنِهم، قافزاً كل سدٍّ وحاجزٍ؛ لأصدّ عن الدين بحسن نيةٍ على أحسن تقدير، فها أنا أسقط في وحل الجهل حين شكرتُ عالماً ويقرْتُ بطن أخيه، وحين رفعتُ عالماً ووضعتُ أخاه!

بئس القوم أنتم، وبئس الفتى أنت، وبئس الرجل أنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهل يسرّك أن تكون مثلهم، وهل يسرك أن تقبع في هذه الدرَكات؟!

قل لا، ولا تألُ يا رعاك الله.

***

الحلقة السادسة

قلّما تجد متزبِّباً إلاّ وهو رهن عاطفته، في أحكامه، وفي مواقفه، فهي التي تُملي عليه وهي التي تُلقِّنه، وذاك راجعٌ إلى أمرٍ لا يمكن لمثله تلافيه أو تفاديه! ألا وهو سعة أُفُق جهله، وضيق مساحة علمه، وتلاطم أمواج الهوى في بحره، فليس في قُدرتِه التحكم بهذه العاطفة التي هي كالمارد العتيد.

ولذلك تخرج الأحكام منه مثل ألوان الطيف، ففي مسألةٍ واحدةٍ تجد له أحكاماً مختلفة! وربما رأيتَ له حكماً واحداً في مسائل مختلفة! فهو يفرّق بين المتشابهات، ويوحّد الحكم بين المختلفات، لأن الباعث على الحكم لم يكن الدليل والعِلّة، إنما كان الباعث عاطفةً لا خطام لها ولا زمام، فيبدِّع سُنّيّاً ويضلل مهتدياً، ويكفِّر مسلماً، فهو يتقلّب بين العواطف تقلّب الشِّواء فيلْعن كل من خالفه اتّباعاً لعاطفة الغضب! ويلعن كل من خالف شيخه اتّباعاً لعاطفة المحبة، فهو يدور مع شيخه حيث دار، لا يجد عُذراً لعالمٍ أخطأ، ولا يريد أن يجد! وأما لشيخه وبني جلدته فلهم من الأعذار سبعين عذراً، وحين لا يجد من السبعين واحداً يتيماً اتّهم نفسه وقال لقِسَتْ نفسي

لقِست نفسي! [١]

وإن تعجب فاعجب من تأرجحه في الحكم على مسألةٍ واحدةٍ! يحرِّم ثم يُحلِّل ثم يعود للتحريم ثالثةً! وفي الحكم على عالِمٍ واحدٍ؛ مرةً يصفه بالضلال وأخرى بالسنّة، ثم إذا ما قيل له في هذا التأرجح! قال بلسان الواثق: إن الشافعي رحمه الله قد كان له قولان في المسألة الواحدة بما عُرف عنه بـ (الجديد والقديم)! فلك الله أيها المتزبِّب! أما الشافعي فما قال في القديم إلا بالدليل، وما رجع عنه في الجديد إلا بالدليل، وأما جنابك! فما قال في قديمه وجديده إلا بالعاطفة.

دعك يا صاحبي من كل هذا العذاب، وتعال يا صِنوي في مرحلتنا الحِصْرمية! نثني الركب في حِلَق العلم ونكفي أنفسنا شر حصائد الألسنة فتالله وبالله لقد أعملْنا الخُفّ والحافر فيما مضرّته أكثر من منفعته، وفائدته لا تُقارن بمؤاخذته.

(١) فائدة: روى البخاري في صحيحه (رقم٦١٧٩) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقولنَّ أحدكم خبثَتْ نفسي ولكن ليقل لقِسَتْ نفسي)، وفي شرح الحديث نقل ابن حجر رحمه الله عن ابن أبي جمرة رحمه الله قوله: "ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قُبح فيه، والخبث واللقس وإن كان المعنى المراد يتأدّى بكلٍّ منهما لكن لفظ الخبث قبيح ويجمع أموراً زائدة على المراد، بخلاف اللقس فإنه يختص بامتلاء المعدة."

وتعال أعطني رأيك، هل نظل على ما نحن عليه من هذا التذبذب وهذا التجنّي على الأحكام الشرعية بمعية العاطفة؟! أم نرتفع بأنفسنا وعقولنا ونحفظ ديننا من عواصف العواطف، ونخطم عواطفنا بالانشغال بطلب العلم عوضاً عن الانشغال عنه بهذه وتلك، ولئن بقينا على حالنا هذه فقلْ لطلب العِلمِ وداعاً وداع الكسولْ، فما نيل العلم إلا بالتفرُّغ له.

نُقِل عن الشافعي رحمه الله أنه قال: "لو كُلِّفتُ شراء بصلة لما فهمت مسألة"

يعني بهذا تفريغ الذهن من الشواغل عن طلب العلم، هذا وهو الشافعي وهو من هو في سرعة الحفظ وقوة الفهم، فما نقول نحن المتزبِّبين ولم نزل حِصرِماً! فنحن مشغولون بالردود على فلانٍ وعِلاّن، وبتقصِّي أقوال فلانٍ وفلان، ثم الأحكام البهلوانية، بالتنطُّط بينها فِعْل القرود أجلكم الله أترى من يفعل فعلنا يمكنه تحصيل العلم! أو يجد وقتاً ليشمَّ رائحة العلم!

إن شراء بصلة أعاق الشافعي عن فهم مسألة، فكيف بمن شُغْله الشاغل تتبّع أقوال فلان في ليله ونهاره، والنقاش والجدال في فهم مراد ذلك العالِم وتخريج قوله على مراده، وقراءة الردود والرد على الردود في فضاء المنتديات، فكم يشغل من الوقت وكم يأخذ من نطاق التفكير!

السؤال المُليحُ عزيزي أن نسأل وإصبع الموحِّدة تشير إلى مِرآةٍ نقف

أمامها فنقول:

من كانت هذه حاله!

متى سيطلب العلم؟!

***

الحلقة السابعة

سأعرض في هذه الحلقة إلى شُبهاتٍ تنقدح في ذهن المتزبِّب يظنها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وكانت هذه الشبهات مزالج صُنِعتْ في مصانع إبليس لمواصلة السقوط إلى الهاوية التي لا يشعر بها، وفي فرْي أعراض المسلمين، وفي الاستمرار في الهجوم على المسائل الكبار بجهلٍ مُركّب، وفي الازدياد من المآثم، ومن تلك الشبهات:

قولهم: نحن ندافع عن العلماء!

ولعَمْر الله إن هذا لمن أعجب العجب! فإن (فاقد الشيء لا يعطيه) فأنت لا تستطيع الدفاع عن نفسك، ولا تستطيع سترْ عورة جهلك، فليس لديك ما تخصف به لسترْها، فأنّى لك سترْ غيرك وأنت العاري! بالله عليك إلاّ خبّرْتني! كيف ستُدافع عن غيرك، ووفاضك من العلم خالٍ، وديارك العِلمية صحراء قاحلة، وعنْزُ علمك قد بدا من هُزالها كُلاها.

بل قد يصل الأمر إلى أن يُؤتَى العلماء من قِبَلِك، فلا أنت سكتّ والتفتّ إلى ما ينفعك! ولا أنت الذي نفع العلماء بالذبّ عن أعراضهم كما يصح وينبغي، بل لعل العلماء يرفضون دفاعك عنهم، ولا يرتضونك

مرافعاً لصالحهم، لأنك - يا رعاك الله - قد تُقوِّلهم ما لم يقولوا، وقد تَفهم كلامهم بغير ما قصدوا، وقد تُقِرُّ للخصم بما ليس في أدبيّات أولئك العلماء فلذلك فإن من الخير للعلماء أن تُعفيهم من دفاعك ومرافعتك.

أقول هل يصح لمثلي ومثلك ومن هو على شاكلتنا وشبيهٌ بنا وفي ارتفاع قاماتنا القريبة من القاع! أن يدافع عن العلماء ويذبّ عن أعراضهم! فنسيءُ من حيث أردنا الإحسان، ونخطئ من حيث أردنا الصواب! لا هاالله إذن! ومحالٌ يا صاحبي محال.

قولهم: ما قلنا غير الحق!

في النظرة العامة قد يكون في كلامك شيءٌ من الصواب، ولكن حين ينظر العلماء إلى تفاصيل نقاشك مع خصومك في هذه المواضيع، يجدون هفواتٍ وأخطاءً تأكل الأخضر واليابس، بل ربما يروك تقول بقولٍ مبتدَع من غير قصدٍ ولا معرفة، إنما لأنك لا تعرف هذه المسائل التي تناقش فيها معرفة جيّدة بضوابطها واستثناءاتها، بل ربما لم تسمع بها من قبل، وما جعلك تتورّط في هذا القول المبتدع إلاّ لأنك رأيتَ خصمك يقول بضده فظننت أن الضد هو القول الصواب! في حين أن الصواب ربما يكون في التفصيل لا في القول بالضدّين، ولذلك فأنت لم تقل الحق!

إن حكمك لنفسك في طرْق هذه المواضيع بأنك على الحق وما قلتَ إلاّ

حقاً! فيه نظرٌ، وبالمثال الآنف يتبين لك أنك قد لا تكون محقّاً، والسبب كله في تزبُّبك وأنت حصرِم. أرأيتَ كيف أنّنا صغارٌ صغار!

قولهم: لن نسكت حتى يسكتوا!

يقصد أنه لن يسكت عن الدفاع عن منهجه أو عن شيخه، حتى يسكتُ أولئك المتكلمون في منهجه وشيخه!

وهذه - في الحقيقة - أُلعوبةٌ من ألاعيب أبي مُرّةَ بهذا المتزبِّب وهو حصرِم، لأجل أن يظلّ سادراً في عماية الجهل، فجعَله أولاً يعتدّ بنفسه! وجعله ثانياً يستمر في بعده عن طلب العلم، وإلاّ فما بيدك وما بوسعك أيها الصغير - مثلي - حتى تقول بملء فيك (لن نسكت)!

وفي الحقيقة والواقع فإنه لن يشعر بنا أشد الناس حساسيّة إن سكتنا أو لم نسكتْ، لإنهم يعرفون أشبارنا في العلم، فهم يقولون لنا بلسان الحال كما قالت النخْلة للبعوضة : (والله ما شعرتُ بوقوعك فكيف أشعر بطيرانك) ،وقد كانت البعوضة قد وقعت على النخْلة وحين أرادت الإقلاع قالت لها (يا هذه استمسكي فإني أريد أن أطير).

***

الحلقة الثامنة

تأمل يا رعاك الله، يا من يترك العلم والتأصيل في العلم ويحشر أنفه في المسائل الكبار ولمّا يزل حصرِماً، لينصرف عن العلم بتزبُّبه، تأمل هذه الآيات التي خُص بها أهل العلم - لا المتزبّبين - وكيف أوصلهم العلم إلى هذه المنازل الرفيعة :

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر:٩] ، ففرّق الله بين العلماء وبين غيرهم.

وخصّهم بمزيدٍ من الخشية منه سبحانه، وأنهم أهل خشيته ومعرفته حق معرفته فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر:٢٨]

بل جعلهم من الشهود على وحدانيته سبحانه دون سائر الناس، فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:١٨]

ورفعهم فوق الذين آمنوا درجات فقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[المجادلة:١١]

وعندما ضرب الله الأمثال أخبر أنه لا يعقلها إلا أهل العلم،

فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]

إن في هذه الآيات كفايةً لك في ثلاثة أمور، أما الأول فلتعلم قدْر العلم فلا تجعلْه آخر اهتماماتك، وأما الثاني فلتعرّف قدر العلماء، وأما الثالث فلتقف على خسارتك حين تتعرّض لهما بسوء، أعني للعلماء؛ فلا تذكرهم بسوء ولا تسلّط عليهم حروفك الهزيلة، وللعلم؛ فلا تقفُ ما ليس لك به علم.

لقد حرم الله القول عليه بلا علم، وجعل رُتْبَته في هرم التحذير بعد الشرك به سبحانه وتعالى، وما ذاك إلا لأنه سببٌ في كل ما قبله، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣] ، بل جعله من أمر الشيطان فقال تعالى وتقدس: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٦٩] .

يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣] : "في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله، والاستطالة

على عباد الله. وتغيير دين الله وشرعه."

تعال هنا يا أيها الفتى فأنا عين الخبير بك، تعال وحدثني عن عدد الذين استطلتَ عليهم من عباد الله؟! سأعفيك مِن عد مَن استطلتَ عليهم ممن هم مثلك! فالعدد كثيرٌ ولعلك لا تستطيع حصره، ولكني أُحدِّد السؤال بالعلماء وطلبة العلم الكبار الذين استطلتَ عليهم؟ أهم عشرةٌ أم خمسون أم يزيدون! وتعال إليّ مرة أخرى وحدثني عن عدد المسائل التي قلتَ فيها بغير علم، وحكمتَ فيها بظن الجاهل؟! أهي مائةٌ أم ألفٌ أم تزيد! توقّف عن حلْب الأعداد من ضرْع الماضي، وأرح نفسك عن خرط قتاد العدّ والكدّ فقد زاد الخرْق على الراقع، وتفلّتت عليك يأجوج ومأجوج الناس والمسائل فما أنت مستطيعٌ عدّها ولا أنت على حَصرها قادر.

وكل هؤلاء سيتعلّقون برقبتك يوم القيامة، وكل مسألة قلتَ فيها بغير علم ستُسأل عنها، وكل من ضلّ بسببك سيكون عليك وزره، فهل أعددتَ جواباً ينقذك من فيح جهنم؟!

إن العالِم حين يُفتي فهو بين الأجر والأجرين؛ إن أصاب جنى أجرين اثنين، وإن أخطأ أُعطي أجر اجتهاده، وأما أنا وأنت فظني أننا بين الوِزر والوِزرين، علينا الوِزْر إن كان خطؤنا على أنفسنا، وعلينا الوزرين إن كان خطؤنا يتعدّى إلى غيرنا فيضِلُّ بسببنا.

وتالله وبالله إن من ضمن الأسباب التي يَضِلّ بها الناس هو جُرأة أمثالنا ممن تزبب ولما يتحصرم بعدُ، حين يُدلِقون ألسنتهم بالفتاوى وهم ليسوا أهلاً للفتوى، يُغطّون سوأت جهلهم بشيءٍ من الفصاحة والبلاغة والبيان وهم دخلاء على العلم وأهله، أعني نحن دخلاء على العلم وأهله.

ومن العجب العُجاب أننا نُفتي الناس في مسائل عظيمة وكبيرة لسنا لها بأهل، ولعلي أسرد بعضها مما وقفتُ عليه من النقاشات والفتاوي ذات البلاوي:

- الحكم على فلانٍ بالابتداع، وآخر بالشهادة في سبيل الله، وثالثٌ بالنفاق، ورابعٌ بالكفر والزندقة والخروج من الملّة.
- الحكم على أفعال الحُكّام المسلمين بأن فعلهم هذا من المداهنة، أو من الـمُداراة، وأن هذا يجوز له وذاك لا يجوز.
- الحكم على عالمٍ بأنه صدّاعٌ بالحق لا تأخذه فيه لومةُ لائم، فهو عالمُ مِلّة وواجبٌ رفعه، وآخر بأنه مُحلِّلٌ للحاكم أفعاله، فهو جبانٌ وماسح جوخ وعالم دولة وواجبٌ إسقاطه.
- الحكم بأنه هذا جهادٌ صحيح، وذاك جهادٌ باطلٌ.
- الحكم بجواز الخروج على ذاك الحاكم، والسكوت عن الآخر.

ومسائل ومسائل مما تهمّ الأمّة أحياناً، ترانا نستعجل الحكم دون علمٍ

ولا رويّةٍ(١)، ومثلنا في الحقيقة حتى لو تروّى فلن يأتي بطائلٍ إن لم يأتِ بآبدةٍ من الأوابد، السبب كامنٌ في الضعف العلمي ليس إلاّ.

وأسوق لك أدباً من أدب السلف لمن ضعُف علمه، وكيف تعاملوا مع صاحبه، حين يعترض بغير علم! فقد روى ابن كثيرٍ في تفسيره عند قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[المائدة:١٠٥] عن ابن جرير: قال "...حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثنا أبو فضالة عن معاوية بن صالح عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول

(١) من كوارث الاستعجال أنه من أسباب الابتداع في الدين، ولا أدل على ذلك من قصة رأس الاعتزال واصل بن عطاء، قال الشهرستاني :" دخل واحدٌ على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعةٌ يكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفرٌ، يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يُرجون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكّر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمنٌ ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، يقرّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل، فسُمّي هو وأصحابه معتزلة". الملل والنحل(١/ ٤٢).

فانظر يا رعاك الله إلى أمرين في هذه القصة؛ انظر أولاً إلى استعجال واصل بن عطاء في الحكم في مقابل تأنّي الحسن البصري في المسألة والجواب عنها، وانظر ثانياً إلى عدم رجوع الجاهل إلى العلماء فوقع بسبب هذين الأمرين في أتون البدعة، وأنا وأنت وأشباهنا كثيراً ما نسلك مسلك واصل بن عطاء، فنسأل الله أن لا يوقعنا في البدع وأن يردّنا إليه ردّاً جميلاً.

الله ﷺ وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة:١٠٥] ؟ فأقبلوا عليّ بلسانٍ واحد وقالوا: تنزع آيةً من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها، فتمنّيت أني لم أكن تكلمتُ، وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلامٌ حديث السن وإنك نزعتَ آيةً ولا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيتَ شُحّاً مطاعاً وهوىً متبعاً وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت".

لهف نفسي! كم من نصوص الوحيين أتينا بها نعترض على العلماء في فتاويهم ونحن لسنا بها بعالمين! وكم أفتينا في القضايا الكُبرى منها قبل الصغرى فرحين مستبشرين! وكم عدونا نَجرُّ أرْدية الخيبة لنقول بالرأي ظامئين لاهثين! وكأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا مقصِّرين حين تدافعوا الفتوى ولم يتسارعوا إليها! فقد روى ابن عبدالبر بسنده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: "أدركت عشرين ومائةً من أصحاب رسول الله ﷺ أراه قال في المسجد فما كان منهم محدِّثٌ إلا ودّ أن أخاه قد كفاه الحديث ولا مفتٍ إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا"[1].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٣).

ولأسهِّل لك الأمرَ في استيعاب معنى أن تكفّ لسانك عن الإتيان بالأدلة دون علمٍ ومعرفةٍ بها، أسْرد عليك هذه القواصم لتزبُّبك لِتقف على كُنْه تخلُّفك العقلّي والعلمي على حدٍّ سواء:

فإن كان الدليل ـ الذي أتيتَ به معترِضاً ـ آيةً من كتاب الله:

فهل هي منسوخة أم لا؟

وهل هي مقيَّدةٌ وليست على إطلاقها؟

وهل هي من المحكم أم من المتشابه الذي يُردّ إلى المحكم؟

وهل تعرف الآية المحكمة لترد المتشابه إليها؟

وهل لها تأويلٌ غير ما يتبادر إلى ذهنك من ظاهرها؟

وهل عمومها مخصّصٌ؟

وهل مجملها مبيَّن؟

وإن كان الدليل ـ الذي أتيتَ به معترضاً ـ حديثاً من سنة النبي ﷺ:

فهل هو من قِسْم المقبولِ، أم من الضعيف الذي لا ينجبر ضعفُه، أم هو موضوع مكذوب؟

وهل هو منسوخٌ أم غير منسوخ؟

وهل له تقييدٌ وتخصيصٌ وتفسيرٌ، لمطلقه وعامِّه ومجمَلِه؟

وهل هو خاصٌّ بالنبي ﷺ لا تَشْرَكه أمّته معه؟

وإن كان الدليل ـ الذي أتيتَ به معترضاً ـ الإجماع:

فهل تعرف إن كان الإجماع حاصلاً أم لا؟

وهل تعرف إن كان من العلماء من يعترض على صحة نقل الإجماع في هذه المسألة؟

وهل تعرف بِمَ يحصل الإجماع؟

وإن كان الدليل ـ الذي أتيتَ به معترضاً ـ القياس:

فهل تُحسِن أن تقيس؟

وهل تعرف أركان القياس، وأقسامه، وشروطه؟

ثم بعد هذا كله:

فهل تعرف ترتيب الأدلة؟

وهل تعرف التعارض والترجيح بينها؟

وإن كنتَ تستدل بقاعدةٍ فقهيةٍ:

فهل عرفتَ شروطها وما يندرج تحتها من المسائل؟

وهل عرفتَ ما يشذّ عن القاعدة؟

وإن كنت تقيس مسألةً على مسألةٍ فتحكم بالأخرى حكم العلماء في الأُولى:

فهل هذه كتلْك حذْو القُذّة بالقُذّة؟

وهل لا يؤثّر فيها تغيّر الزمان والمكان؟

وإن كنتَ تستدل بقصّةٍ لعالِمٍ من العلماء:

فهل القصة ثابتةٌ وصحيحةٌ؟

وهل لا تخالف كتاباً ولا سنّةً؟

وهل هي من قبيل الاجتهاد الذي أخطأه فيه؟

أخيراً! أظنك قد تعبْتَ من أسئلة (هل)، ولعلك تضايقتَ منها وضجِرتَ، ومن المتوقّع أنك قد تألّمْتَ! إذن:

فاعلم أن سؤال الله لك أعظم وأكبر وأشد خطراً عليك، فأعِدّ للسؤال جواباً يُنقِذك من فيح جهنم.

***

الخاتمة

أختم هذه القصة وهذه الرسالة وهذه الصيحة بدعوتك ونفسي وكل من هو شبيهٌ بنا ونحن كثرةٌ كاثرة إلى :

١ -ترك الخوض في هذه المعمعات والبعد عن هذه الشبكة المختلفة العُقَد، فإني وإياك لا نحسن الخوض ولا فكَ العُقَد.

٢ -دعْ مسائل العلم وما حولها لأهلها من العلماء وكبار طلاب العلم الذين أفنوا أعمارهم في العلم فخَبَروه وعرفوه.

٣ -احتطْ لنفسك من تبديع هذا وتكفير ذاك وتفسيق ثالثٍ وقدْح رابعٍ وأحلْها إلى المليء وما المليء إلا العلماء.

٤ -توجّه إلى طلب العلم وثني الرُّكب في حِلَقه، والبحث عنه في مظانّه لا يشغلك شاغلٌ غيره، فوالذي أُقسم به سبحانه وتعالى إن من الخير لنا أن نكون كذلك، فكم تجشّمنا ما تجشّمنا من الأهوال والآثام في أحكامٍ اعتباطية، ومواقف بهلوانية، ونكوصٍ في معرض اتّباع، وبُعدٍ في مزاعم قُرْب.

أما ترى نفسك بعد مُضيّ السنين وتصرُّم الأعوام جاهلاً فيما لا يسع المسلم جهلَه! لا تُحسن إلا نُتَفاً من المسائل مبتورةَ الساقين مقطوعةَ اليدين تلك المسائل التي كانت محل النقاش! ولا تستطيع القيام بباب من أبواب العلم، ناهيك عن خلوِّك من التأصيل وسلوك الطريق القويم في طَرْق مسائل العلم.

أما آن لك أن تضع نقطة لنهاية رحلتك، وترْقُم تحتها "نهاية التزبّب" ثم تفتح صفحةً جديدةً، بيضاءَ نقيّةً، تكتب في طُرّتها: "بسم الله الرحمن الرحيم .. بابٌ، العلم قبل القول والعمل"، ولئن فعلتَ فإنك ستجني ثماراً يانعة، ستقلُّ ذنوبك، وستقترب من ربك، وستزيد من نور العلم وسينطفئ الكثير من الظلام، وستهدأ نفسك ويهنأ بالك، وكل هذه من نعم الله وحسن اختياره لعبده.

فيا قارئاً لم أره ولم يرني! لقد مرّتِ الأسطر والصفحات والحلقات مر السحاب، فألتمس منك يا رعاك الله أن تمشي معها كما يمشي الوجِي الوحِلُ، متفكّراً معتبِراً مُتّخذاً قراراً ينفعك، فلقد أبنتُ فيها عما أريد قوله في خصوص تجربتي في قضاء الوقت الطويل في النقاشات والنزاعات والمجادلات حول نقد الجماعات والرجال وفلان وعِلّان! ومُضيّ العمر فيما غيره خيرٌ منه بالنسبة لي ولك بكل تأكيد.

لقد وضعتُ في الحلقات خلاصة تجربةٍ امتدّت لأكثر من أربعة عشر عاماً، وحريٌّ بالعاقل أن يرى العبرة في غيره فيعتبر، ومن الغبن الظاهر والغرر المؤكَّد إن كان المرء لا يعتبر إلا بنفسه! ولكن هل يُعدّ هذا معتبراً وقد بلغه ما انتهى إليه غيرُه! بالطبع لا، لإنه حينذاك قد تأكدتْ خسارته، ورآها تتراقص أمام عينيه كيداً وإغاظة.

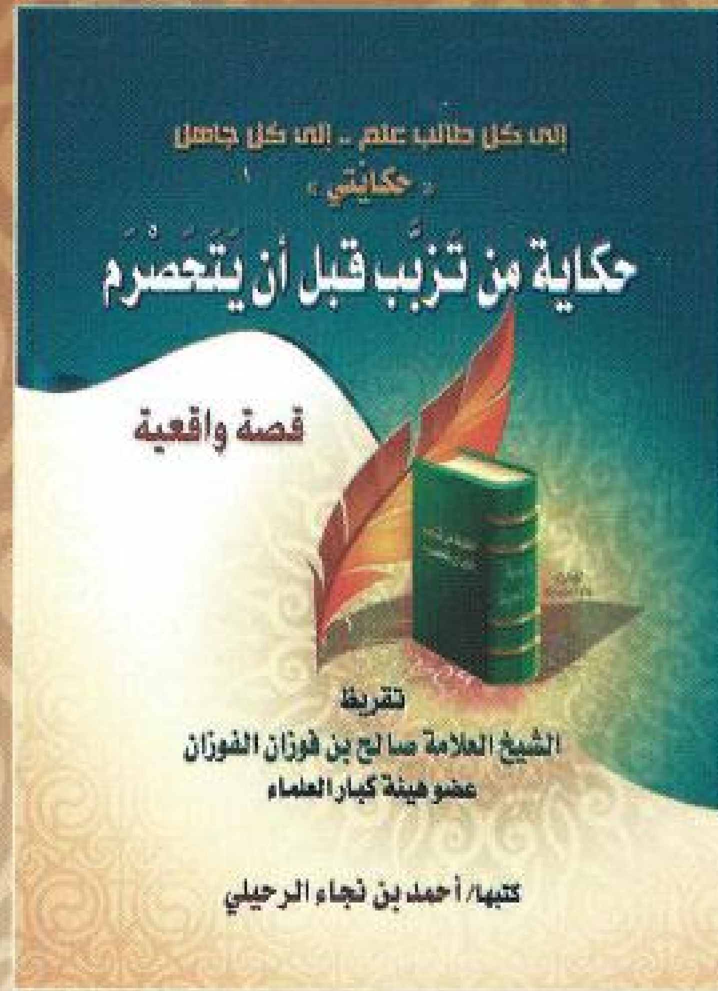
لم أضعْ هذه الحلقات مفاخرةً، وكيف يفخر المرء بالخسارة! اللهم إلا إن كان مجنوناً قد أرضعتْه الجِنُّ حولين كاملين، ولم أضعها مُراءاةً ولا مماراةً ولا رياءً ولا سُمْعةً إن شاء الله وأسأل الله أن يغفر لي إن كانت كذلك أو كان بها بعضٌ من ذلك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

بورك الجم الغفير

بوركوا أجمعين أكتعين أبصعين

وأيضا أبتعين.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله / وبعد: فقد تصفحت هذا الكتاب (إلى كل طالب علم .. إلى كل جاهل) فوجدته يشتمل على النصيحة في مسألتين. الكلام في المسائل المشكلة عن غير علم. الوقوع في أعراض العلماء والانشغال بالجرح والتزكيات. والحث على طلب العلم قبل الكلام. فهو كتابٌ جيدٌ في موضوعه.

كتبه/صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء
في ٢/٣/١٤٣٣هـ

الناشر
مكة المكرمة
دار طيبة الخضراء
الرياض
٠٥٤٤٥٩٩١٠٠ - ٠٥٠٤٥١٢٤٤٧